الفصل الخامس
لارا ناصر الجرايده

الإهداء

إلى الأرواح التي زرعت بداخلنا خيراً...
والأيدي الأربع التي تتشققُ كرهاً...
ولِصاحبُ الأثر في بدايتي هذه.
إلى جميع من أحبهم ويحبوني بصدق.

****

نجمةٌ وقمر

بينما يُراودني كل ليلة شبح الحظ الصدئ ليتلوا عليّ: سوء الطالع سَيلازمك، قلبك الكليم لن يُشفى، ولا جدوى من انتظار سماع صرير الأبواب المُغلقة، سَتبقى وحيداً مُنطوياً في زَوايا غُرفتك، ستحيا دونما يدٍ تُربت على كتفك، مبتور من رحم الحياة كساقٍ مُقعدٍ سليمٍ معافى، سترى الجميع ولا أحد يراك وكأنك جسدٌ من سرابٍ، قلبك الذي يتسع لسكان الأرض لن تَجد من يحتويه، وروحك التي يخالها الناظر كنفُ طائر تأبط صغاره سَتكوى وتزهق دونما رحمة.

كان هو يسعى لكيلا نعيش على الفتات والأناة، يُهرول من أجل أن يشتري لنا دثاراً يقينا من برد الشتاء ورمض الصيف، يواصل العمل ليلاً ونهاراً ليجني المزيد من المال الذي يَسُد به رمق يومنا، ويُمكنه من تحقيق حاجاتٌ أساسية وكمالية، ليكفي به قوت أطفاله المقبلين على معركة الحياة، ويُحارب لسماع أسمائنا في القمة دائما، وكأن كل ذلك لا يكفيه، فحين يأوي إلى فراشه يتدبر ويفكر بكيف السبيل إلى رعايتهم؟.

كانت هي ترجو الله بأن يجبر كَسرهم، ويجعل الفرح نصيبهم والراحة حليفهم، تتضرعُ للمولى طمعاً به لِجعلهم ممن يرضى عنهم ويُرضيهم، وتُخبر نفسها هذا سَيُلبي رغباتهم، وذلك سيَرسم البسمة على مُحياهم، فهي دائمة العمل، نَشيطة تبحثُ عن أجوبة لأسئلة لا حصر لها؛ ما يتوجب عليّ فِعله لكسر قيود الصمت المُطبق على أفواههم؟

لِم إيماءات الحزن تتلألأ بعينيها؟

مع مَن سأبدأ غداً؟

ما الذي قوّض أحلامَ صغيرتي؟

كيف لي أن أصبح صديقة سِرهم ومجيبةُ نجواهم؟.

نجمةُ وقمر، اتّحدا في ليلة سَهرٍ ليُنيرا عتمة روحي، يضيئان أركان وحدتي، نجمة ترنو إلى جعلنا أسساً وجزءاً لا يتجزأ من هذه الحياة، وقمر يَسعى طويلاً ليرتقي بنا نحو العُلا.

والدايّ نجمة وقمر من بعدِ قمر السماء ونجومها.

****

وحيي

انتشلَني من وحدتي وحطم جدران ألمي، استبدل حرفي لامٌ وألف إلى نونٌ تتبعها عينٌ تليها ميم، استنْكرَ كميةَ وكيفية وجود الحزن بتلك العينين العسليتين اللتان يُخالِطهما اللون الأخضر عند التقائهما بانعكاس أشعة الشمس، قَابل البُغض المُرتسم على قلبي للمستقبل القريب البعيد بابتسامةٍ شقية سرمدية، وبحروفٍ تنشر الحب والسلام.

بدأ يتلو أن الماضي ما كان إلا درساً نتعلم منه لنحيا الحاضر، وأن في الحاضر موعداً للفرح والترح سوياً، وأنه عز وجل قال بكتابهِ الكريم:(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) سورة يس/**84**، فهو الأقرب إلينا من حبل الوريد أيعجزه حياتُنا، قلبنا، مُستقبلنا، حتى سِترُ ماضينا؟، ماضينا الذي جعل منّا أقوياءٌ وذو بأسٍ وحكمةٍ ونظرةٍ لا يمكن أن تُخطئ.

وذات ليلةٍ قال لي ناصحاً بعد ما أكناني بأختي، صديقتي، مُعلمتي، أمي، مُلهمتي، ابنة قلبي، ليلكَ الهوى، وحبيبتي أيضاً ثِقي بأن الله سيجمع الشتيتين يوماً ما، لكن بقليلٍ من التفاؤل والصبر، فما ذاقت حَلقاتها إلاّ لتفرج، وبأن حُبكِ وعطائك سيُطفئان نار الشوق والحقد، وبطيفك الرقيق ستجمعين بقايا الألم وتُلقينه خارجك وخارج من حولك، وحرّكَ سكونَ قلبي عندما قال: أنتِ هِلالُ بدرٍ وأهلٌ لي ولها ولنا، فقلبكِ الذي يتسع الكون بِرمته سيتسعُ للفرح المُخبئ له بغياهب الغيب.

حينئذ أسميتهُ وحيي الخاص، وملاذ قلبي الضعيف وهوية قلمي الضائع، وزورقَ نجاة أحلامي العائمة على سطح الحياة، وفاصل الحزنُ السرمدي، وسيد القوة المتوارية خلف ستائر الضعف.

****

آلائي

رأيتها من بعيد، فخالجني شعورٌ بالابتعاد والاقتراب في آنٍ واحد، فوددت التقربَ أكثر لكن حَالما هرولتُ مبتعدةً لعلي أحظى بفرصةٍ أخرى، لعلَّ القدر يبتسم لي في إحدى ساعات الغرق اللواتي يستبحنْ دمي، كتلك الأضحية التي حُزَّ عنقها في صبيحة ليلة العيد، فغرقي مستفردٌ بي فأنا الذي تُغرقه تفاصيل التفاصيل، أنظرُ نحو السماء وأتوق إلى هدية إلهية تُحدث هزةً في عالمي المُهترئ.

تِسعون يوماً مضوا منذ أن راودني ذلك الشعور، مَضوا وكأنهم دهرا، تخللتهم الرغبة في لُقياها وضجّوا في الدعوات والتضرعَ للخالق، انقضوا وأنا أحتسب تلك الدقائق التي يَقضيها قلبي وحيداً، وحين أنصت القدر لصوت حالي المرتجف ساقها إليَّ ببدايةٍ فريدةٍ، فالفضول لم يَكن مُطبقاً فكيه في فضائِنا، والأيام تهرع كحصانٍ يجلده حوذي العربة وحارسها في آنٍ واحد، فقرر القدر حِياكة فرصة جديدة ببداية تُشابه البدايات المُتعارف عليها.

أجسادنا تفرقت في جسدين أحدهما قطَن الشرق والآخر اتخذ الغرب، ولكن أرواحنا تآلفت وأخذت تتراقص في سماء أرضنا وعلى أنغام أغنيتُنا الأولى، وباتت تجوب طُرقات الحزن وهي مُستندة على جسد أختها، وأصبحت تخاف المَسير دون أن تُحكم قبضتها على يدي روحها الغائبة العطشة للقاء جسدها.

آلائي نعمة هبطت من أقصى هضبةٍ فاحتضتها يداي، جاعلة منها سبيلاً ليروي ظمأ السنين، ليُقصي طيف أشباحُ الألم، ليُبعثر بقايا الجراح المميتة، وليَجبر كسور الخاطر العالقة، وليُنعش تباشير الحب، فإذا بحالنا حال وتحول وأصبح بحال غير مسبوقٍ بعد، فهي منْ باتت لي عالماً، صديقة، مُحدثة، رفيقة الوحِدة، القضية الأولى، والقسمة العذبة، وأنا بتُ لها خارطةٌ، طفلة، وأفضل مُستمعةٌ، جَليسة ليالي السَهر، هدفُ السعادة المرجو، ونَصيبُ القلب والفؤاد.

****

زهر الأقحوان

بيت بُني بسواعدِ ثلاثة أجسادٍ تحمل أرواحاً ضائعة وقلوباً حائرة، لبثوا جميعاً منذ فترة لتقوية ركائزه ودعم جذوره لِيصل إلى الأعماق، ورغماً من أن الأمر كان أشبه بإنشاء غرفةٍ أعلى عِمارة ذات أساسٍ آيل للسقوط، لكنهنَّ فعلنها، فبدأت أحاديث الليل تتصاعد ومواقف الحب تتناثر، حادثةٌ تعقبها رواية، وعتابٌ يليه مواساة، وعَبرة تَردفها بسمة، حضنٌ يَخلفُه عناق.

برقةِ شغاف القلب امتزجوا وغدوا قلباً واحداً، وبسِعة صدر آلفوا من حَولهم، جعلوا من المستحيل ممكناً، ومن الضعف قوة، ومن الماضي الجريح حديثاً مُسلياً، رغم أن الألم يعتري مُحدثه وسامعه، ولأن الأرواح تتلاقى قبل الأجساد وسع البيتُ أُسرةً أكبر، أسرةٌ أفرادها أضعفهم الألم لكن حروفهم المُبعثرة هنا وهناك شَّدت عزمهم وروت عطش قلوبهم وقلوب من حولهم، فاتحدوا جميعاً وتسلقوا هضبة الحب والتعاون مُهتدين بنور قوله عز وجل "سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ".

كائنات، مكنونات، وممتلكات هذا البيت هُنّ، صديقات القلم وشريكات المِحبرة، قائدات ثورةٍ تندلعُ بين دفتي كتاب وعلى قُصاصة ورق، رويحاتٌ من عبق الجنة سُكب على الأرض فاستنشقتهُ أرواحٌ تائهة، أخواتٌ كآلاتٍ موسيقية عزفنَ موسيقا تراجيدية بصيغة رومنسيةٍ، وفتياتٌ فاتنات بجمالٍ يُضيء عتمة كوكب بأكمله.
صديقاتٌ لسنَ كأي صديقات بالكافور تعبق رائحتهنَّ كزهر الأقحوان، وعندما تجف أرواحهن تأنس منها ملاذا لبؤسك كما تَنتشي عِطره حينما تَجف أوراقه، وكما يطلق عليه زهرة الفرح هنَّ سبيل للسعادة.

****

نسمة ديسمبرية..

يُقال في ديسمبر تنتهي الأحلام، حيثُ يبدأ العام بحَزم أمتعته استعدادا لبدايةِ عامٍ قادم، شهرٌ ينطوي في ثناياهُ ثلاثمائةٍ وأربعٌ وثلاثون ألماً، شوقاً، حباً، وحُلماً سابقين وبنهايتهِ يبدأ ثلاثمائة وخمسٌ وستون حُلماً، حباً، شوقاً، ألماً قادمين.

في ديسمبري هذا كانت النتائج تخالف التوقعات، كانت صغيرتي المُقبلة في آخر العام نسمةٌ خفيفة رقيقة الحضور، وروحٌ تهوى نشر السَلام في كل حِلٍّ وترحال تَرتحلهُ، روحٌ تُرغمك على أن تُكنيها بحمامة السلام دونما تريثٍ، وقلبٌ حانٍ دافئ يُجبركَ على حُبه عنوةً، قلبٌ كغيمة سماء تُهديك قطرات ندى تتسابق لقرعِ نافذتكَ صباحاً.

صغيرتي تهوى الدعاء ولسانُ حالها يلهج دوما بذكر الله، تُحبذ منْ يقول لها ذَكرتك بدعائي، منْ يحُب شغفها ويَصنْ طموحها؟ منْ يُشاطرها السِباق للقمة؟، وتبغضُ منْ لا يُكرم نفسه، منْ لا يهوى الحُلم والأمنيات، منْ يُجبر قَلمه على النزوح والسقوط بين دفَتي ورقةٍ لا تحمل أي

معانٍ للحب والوئام، ورقةٌ تُرسلُ لمن لا يقرأ ولا يعي معنى أن كاتبةً تصف وجوده باستخدام ثمانيةٍ وعشرون حرفًا.

فكيف لي ألّا أحبها؟
ألّا أهوى قلبها؟
ألّا أراها عالمي؟
ألّا أُكنيها روحي وراحتي؟
وكيف لي ألّا أكونَ بهجتها ومُهجتها؟
ألّا أكون سِرها ونجواها؟
ألّا أكون كونها وكائنها؟
صغيرتي هي نَسمتي الدِيسمبرية لعامِ ألفان وتسعة عشر.

****